مَثَابةً وَأَمْناً

قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لاَ يَقْضُونَ مِنْهُ وَطَرًا، يَأْتُونَهُ ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ إِلَيْهِ.

وَقِيلَ: إِنَّ مَنْ زَارَهُ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَنَّهُ يَرْجِعُ بِالثَّوَابِ الْعَظِيمِ؛ أَيْ: مَحَلاًّ لِنَيْلِ الثَّوَابِ مِنَ اللهِ.

وَأَمْنًا؛ أَيْ: أَنْزَلَ اللهُ الأَمْنَ فِي رِحَابِهِ، فَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا؛ الإِنْسَانُ وَالطَّيْرُ وَالشَّجَرُ وَالْكَلأُ. فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ الْجَمَادَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ فِي أَنَّهَا تَأْمَنُ فَمِنْ بَابِ أَوْلَى بَنُو آدَمَ.

وَكَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى شِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ يُعَظِّمُونَ الْبَيْتَ، فَكَانَ أَحَدُهُمْ يَلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ أَوْ قَاتِلَ أَخِيهِ أَوْ قَرِيبِهِ فَلاَ يَجْرَأُ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْهُ وَلَوْ بِالْكَلاَمِ؛ لأَنَّ اللهَ جَعَلَ مَنْ دَخَلَ هَذَا الْحَرَمَ آمِنًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وَقَالَ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص: ٥٧]. وَمَعَ وَفْرَةِ الأَمْنِ مَنَحَ اللهُ أَهْلَهُ الرِّزْقَ الَّذِي يُجْلَبُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِ الأَرْضِ حَتَّى يُؤَدُّوا عِبَادَاتِهِمْ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ. فَنَرَى اجْتِمَاعَ هَذِهِ الْجُمُوعِ الْهَائِلَةِ مِنَ الْبَشَرِ، وَتَرَوْنَ الرِّزْقَ قَدْ بُسِطَ عَلَيْهِمْ؛ الْمَاءُ وَأَنْوَاعُ الطَّعَامِ؛ وَذَلِكَ لأَنَّ إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلاَمُ- دَعَا لأَهْلِهِ حِينَمَا قَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وَهَذَا الْحَرَمُ لاَ يَجُوزُ ابْتِدَاءُ الْقِتَالِ فِيهِ، إِلاَّ فِي حَقِّ مَنِ اعْتَدَى عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ يُقَاتَلُ، ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «إِنَّ اللهَ أَبَاحَهَا (عَامَ الْفَتْحِ) لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ عَادَتْ حُرْمَتُهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

جمعه

محمد بن سليمان المهوس

في ١٤٤٢/١٢/٧هـ